المدنيـــة الحريـــة حول أفكـــار

أفكار حول الحرية المدنية

بيتر فورسكال

ترجمة: د. همدان دماج

§.1.

كلما عاش المرء وفقاً لميوله الخاصة، أصبح أكثر حرية. لذلك، إلى جانب الحياة نفسها، لا يوجد شيء آخر يمكن أن يكون أكثر أهمية للمرء من الحرية. لا يتنازل أي إنسان رشيد أو يحد من حريته؛ إلا إذا أجبر على القيام بذلك، عن طريق العنف أو الخوف من شر أكبر.

§.2.

الميزة التي يعشقها المرء لا تحتاج إلى تقييد في عالم يحب الجميع فيه الفضيلة. ولكننا كثيراً ما ننجذب إلى ممارسة الرذائل والظلم. ولهذا، يجب وضع الحدود بالنسبة لنا، كما يجب أن تفقد الحرية جانبها الضار، وأن يظل منها ما يكفي المرء -وفقا لإرادته الذاتية- من أن يفيد نفسه والآخرين، وألا يلحق الضرر بأحد.

§.3.

عندما يُمنح هذا لكل فرد من أفراد المجتمع، عندها تكون الحرية المدنية حقيقية. هذا يعني ألا يُمنع أي فرد من القيام بما هو لائق ومفيد للمجتمع، وأن كل شخص مستقيم يمكن أن يعيش في أمان، يطيع ضميره، ويستخدم ممتلكاته، ويساهم في رفاهية المجتمع الذي يعيش فيه.

§.4.

إن الخطر الأكبر على هذه الحرية يأتي دائماً من أولئك الأكثر نفوذا وقوة في البلاد، من خلال مناصبهم أو مراكزهم الاجتماعية أو ثرواتهم. إذ أن ليس باستطاعتهم فقط أن يسيئوا استعمال السلطة التي يملكونها بسهولة، بل أنهم يقومون أيضا بزيادة حقوقهم وقوتهم باستمرار، بحيث يزداد السكان خوفاً منهم أكثر فأكثر. ذلك لأن الحرية الكاملة للمجتمع ليست أن يكون الرعايا في مأمن من عنف الحاكم فحسب. صحيح إنها خطوة كبيرة وأولى نحو السعادة العامة، لكن، يمكن أن يتعرض الرعايا أيضاً للاضطهاد بعضهم من بعض. وفي جمهوريات عديدة، مثل

البولندية والإيطالية، والتي تفخر باسم الحرية المقدس، معظم الناس هم إجراء ضامنون للطبقة الغنية.

§.5.

ذلك لأن الحرية الكاملة للمجتمع ليست أن يكون الرعايا في مأمن من عنف الحاكم فحسب. صحيح إنها خطوة كبيرة وأولى نحو السعادة العامة، لكن، يمكن أن يتعرض الرعايا أيضاً للاضطهاد، بعضهم من بعض. وفي جمهوريات عديدة، مثل البولندية والإيطالية، والتي تفخر باسم الحرية المقدس، معظم الناس هم إجراء ضامنون للطبقة الغنية.

§.6.

قد يسأل شخص ما: أي من السلطات الأعلى تكون سيئة لبلد ما؛ سلطة الحاكم أم المواطنين؟ أنا أعتقد أن الأخيرة غير محتملة، ولا يمكن تحملها؛ ولكن الأولى غير قابلة للشفاء أو التغيير، وبالتالي ينبغي للمرء أن يتجنب، بل ويرتعد، من الأولى أكثر؛ لأنه إذا لم يتم إزالتها، فلا يمكن أبدا إزالة الأخرى. باسم الحكام المستبدين، ومناصبهم، تمارس السلطة في كثير من الأحيان من قبل أفراد فاسدين، لا يستحقون نعمة رؤسائهم؛ لكنهم آمنين بسبب تمتعهم بها.

لأسباب عديدة، يكون من الصعب علاج عنف الحكام ذوي السلطة المطلقة. والاعتقاد المفرط بقداسة التاج يحمي حتى الملوك الأكثر ظلما. يتصور العديد أنه لا يوجد ما يكفي لإنسان لأن يصبح فرد ما فوق الآخرين، أو على مقربة من أن يصبح إلها. لأنهم مقدسون، يلعب ملوك البربر بحياة رعاياهم دون عقاب. في انكلترا، تجعل مجموعة غير المحلفين من الأمر مسألة ضمير؛ ألا يكونوا مخلصين نحو الأسرة الحاكمة غير المخلصة. ولكي لا نبتعد كثيراً بحثا عن الأمثلة، فقد استنفدت السويد مواردها من الرجال والمواد الغذائية والمال، خلال حروب الملك كارل الثاني عشر، وكان لا يزال يُعتقد عن هذا البطل* بأنه لا يسير ببلاده إلى الخراب، بل يدافع عنها. وهكذا، لا يشعر الرعايا دائما بظلم الحكام، وإذا أحسوا بالظلم فليس من المؤكد أنهم يقدرون على تحرير أنفسهم منه. عند الضرورة، يقوم الأمراء لوحدهم بحراسة امتيازاتهم الخاصة، ولوحدهم يحكمون في كل الأمور. تجتمع فائدة وقوة البلد بأكمله في شخص واحد فقط. ولكن، عندما يضطهد بعض الأفراد أفرادا آخرين، ينتبه الجميع إلى ذلك الظلم، وعندما يسيء العديد استخدام سلطتهم معا، يتغلب الحشد الأكبر بسهولة على أهدافهم وقواهم المتباينة. ولذلك، فإن قوتهم وتبجيل الجمهور لا تضمن لهم الحماية الكافية. والحماية الوحيدة هي إخفاء الظلم الذي يمارسونه. لكن ذلك لا يمكن إخفاؤه طويلا إذا كان مسموحاً، في الكتابات العامة، لكل فرد التحدث عن الأمور التي تجري ضد مصلحة العامة.

*انظر: Enväldets skadeliga påföljder (الآثار الضارة المترتبة على الحكم المطلق) ستوكهولم، 1757.

§.7.

إذن، تتمثل حياة وقوة الحرية المدنية في حكومة محدودة وحرية غير محدودة للكلمة المكتوبة؛ طالما تتبع العقوبة الصارمة كل ما يُكتب ويكون محل أتفاق تام بكونه غير لائق، يحتوي الكفر بالله أو إهانة لخصوصية الأفراد، أو تحريضا واضحاً على الرذائل.

§.8.

الوحي الإلهي، والقوانين الأساسية الحكيمة، وشرف الأفراد، لا يمكن أن تتعرض إلى أضرار خطيرة بسبب مثل هذه الحرية في التعبير؛ لأن الحقيقة تنتصر دائما سواء تم إنكارها أو الدفاع عنها.

§.9.

على العكس، تدفع حرية الكلمة المكتوبة المعرفة إلى مستوى أعلى، وتُـزيل كافة القوانين الضارة، وتقيد ظلم جميع المسؤولين، وتشكل الضمانة الأكثر للدفاع عن الحكومة في الدولة الحرة؛ لأنها تجعل الناس في حالة حب مع مثل هذا النوع من الحكومات. في انكلترا، لا يسمع المرء غالبا عن التصاميم الخطيرة ضد القوانين الأساسية الراسخة. فهناك، يمكن منع الإخلال بالنظام العام في مرحلة مبكرة، من خلال حرية الجمهور في التعبير عن استيائهم.

من ناحية أخرى، في بلد ليس مجهولاً*، كان لدينا مثال هام لحقيقة أنه عندما يتم الدفاع عن التوزيع غير المتكافئ للحرية باستخدام الكراهية والقسر، يلجأ الناس بسهولة إلى العنف واتخاذ التدابير اليائسة؛ إن الشخص الذي لا يملك إلا القليل سوف يفضل أن يخسر كل شيء بدلاً من، بعيداً عن الغيرة ورغبة الانتقام، أن يرى قدراً كبيراً من حرية المجتمع وحريته الخاصة تُسلب منه من قبل أقرانه من المواطنين؛ لأن من يملك القليل ليخسره يخاطر بخسارة أقل، وعندها يمكن له أن يلحق بعدوه ومعذبه خسارة كبرى. هذا الأمر قد لا يثير الإعجاب؛ لكنه يظل من الأمور الشائعة. ولذلك، يجب الحفاظ على الحرية بالحرية نفسها. طرق القمع والإكراه للساخطين يضع الحرية في خطر مطلق، بغض النظر عما إذا كان لديهم سبب للسخط أم لا. لهذا تسمح الحكومة الحكيمة لرعاياها أن يعبروا عن سخطهم بأقلامهم بدل الأسلحة الأخرى، الأمر الذي ينير من ناحية، ويهدئ ويحول دون قيام الانتفاضة والفوضى من جهة أخرى.

* الدانمارك.

§.10.

ذُكرت سابقا في (§.3.) إن الحرية المدنية تفضي إلى أن كل شخص مستقيم يمكنه أن يعيش في أمان، يطيع ضميره، يستخدم ممتلكاته، ويساهم في رفاهية المجتمع الذي يعيش فيه. سأشرح كلّاً من هذه النقاط بشكل مختصر. يضع القانون حياتنا في أمان كبير؛ لأنه ينص على أنه لا يجوز لأحد أن ينتهك جسد وصحة شخص نزيه بدون عقاب. ومع ذلك، يتعين على المرء الاستماع إلى أصحاب الاتهام وتنفيذ الأحكام الصادرة من القضاة، حتى لو لم يرتكب المتهم أي جريمة. ولأن المجتمع لا يمكن أن يوجد بدون محاكم قانونية، والقضاة ليسوا دائما محايدين*، فإن كراهية الناس والحماسة غير المقيدة انتزعت في بعض الأحيان الأكثر براءة من المواطنين. لا يوجد خطر أكبر من هذا، للحياة والسمعة في آن واحد، وإما أن التغيير غير ممكن أو أن حرية الدفاع عن النفس علنا قد تؤدي إلى تهدئة غضب الناس وردع القضاة من التلاعب. حتى لو لم يكن بالإمكان تحقيق هذا الأمر، فإن التعويض العادل على الأقل عن هذا الظلم الكبير هو أن يُسمح للمدان التعس، كما في انكلترا، أن يظهر لعشيرته ولأبناء بلده أنه يموت بريئاً.

* انظر: منشورات عديدة حول المحاكمات، والقضاة، والحرية والسلامة المناسبة للكلمة المكتوبة.

§.11.

في كثير من الأحيان قد يستند الضمير على آراء مزيفة، الأمر الذي لا ينبغي التسامح معه إذا كان هدفها الوحيد هو تدمير المجتمع والناس، مثل قواعد اليسوعيين المخادعة. ولكن أولئك الذين صاروا خطرين بسبب الضمير الفاشل عادة ما يمكن أن يصبحوا مواطنين صالحين، إذا تكيف المجتمع قليلا مع أوهامهم. يتهرب المينونيتيين من أداء القسم؛ لكن يمكن للمرء أن يثق بسهولة بكلمة "نعم" أو "لا" الصادرة منهم. لا يحارب العديد منهم العدو؛ ولكنهم يساهمون في دفع الأموال عن طيب خاطر لتمويل القوات المحاربة. هذه الاختلافات بين الأديان قد توجد دون أن تؤثر على الوحدة المدنية. يتجلى ذلك بوضوح وبسرعة من خلال الرفاهية والحرية في ولاية بنسلفانيا، حيث في إطار الحرية نفسها، ستفسح الأوهام الدينية في نهاية المطاف المجال لقوة الحقيقة، وتتقلص، غالبا، عند التحريض على حماسة حمقاء من خلال الاضطهاد، وسوف تنتشر بعنف أكثر، مثل النار تحت الغطاء. أخيراً، بما أن المكان الذي يكون فيه كل شخص بلا أوهام غير موجود، يصبح الأمر أقل أهمية فيما إذا كانوا يفشلون علنا، كما هو في انكلترا، أم كونهم منافقين، كما في أماكن أخرى.

§.12.

في المجتمع، يكون لدى الفرد ممتلكات، وذلك -جزئياً- بوصفه عضوا في الدولة، وجزئياً كفرد. من النوع الأول الدخل العام، وتلك التي تم شراؤها على أساسه، إلى جانب الخدمات العامة. ومن النوع الأخير ما يملكه كل فرد. ينبغي أن يحمي القانون كليهما من العنف، ومن التعرض للإيذاء. ينبغي أن تقع على كل فرد حصة معقولة من الأعباء العامة والفوائد، ولأن المجتمع مشترك بين الجميع فينبغي للحرية أيضاً أن تكون كذلك. ولذلك ينبغي ألا تجمع ضرائب البلاد بمبالغ كبيرة جداً بناءً على إنفاق البعض، بل ينبغي على الجميع المساهمة في الدخل العام وفقاً لدخلهم الخاص. وعلاوة على ذلك، لا ينبغي لمن هو مؤهل لأن يتولى المناصب العامة ومناصب الشرف أن يكون محروماً من أمل تحقيقها.

§.13.

إذا كانت الاختبارات المناسبة مطلوبة قبل التعيين في كل الوظائف العامة، وإذا سُمح لأولئك الذين أكملوا مثل هذا الاختبار بالانتقال إلى المستوى الأعلى فقط بسبب الوقت الذي قضوه في الخدمة في عملهم السابق، وإذا كانت الخطوة الأولى ستكون من نصيب أول من ثبتت كفاءته للعمل؛ فلن تقع هذه المناصب في يد من لا يستحقها، ولن يكون بالتالي للأسرة أو الأموال أو المحسنين أهمية لضمان الترقية أكثر من حرص المرء ومهارته.

§.14.

لا توجد اختبارات أسهل أو أكثر موثوقية من امتحان المعرفة، ثم الممارسة المرتبطة بالعمل. تستخدم هذه لرجال الدين عندنا، ولجميع المسؤولين الحكوميين في الصين. ولكن، لن يكون عملاً بارعاً ألا يروق لك الأفضل، إذا ما سمح للمرء أن يسأل عن كل ما يريده المرء ويحكم على ما يختاره. لهذا كان من الضروري أن يشترط لكل عمل معرفة معينة، وكتب خاصة، وتعليمات خاصة، ومهام يكون المرء محاسباً عليها علنا.

§.15.

من السهل السماح باستخدام ممتلكات المرء لصالح نفسه والمجتمع؛ ولكن، لا يمكن اكتساب جميع أنواع الملكيات من قبل الجميع بما يمكن أن يكون مفيداً للمجتمع. لا يستطيع أي فرد الحصول على الأرض في أي مكان يريده، سواء عن طريق العمل أم الشراء، على الرغم من أن العديد لديهم من الأرض أكثر مما يستطيعون زراعته، وهو ما يشكل في أغلب الأمر ضرراً على الصالح العام؛ فالقوانين (مثل قوانين موسى بين اليهود، حول ما تملكه كل عائلة من قطعة متواضعة وأبدية من الأرض، كتاب موسى الثالث 25: 13-16 و23، و24،

و40، و41، أو قوانين ليسينيوس بين الرومان: حوالي 500 جاغيرا (257 7/1 فدان)) تكون مناسبة إلى حد ما، سواء لتعزيز زراعة الأرض أو لتحقيق التوازن بين حقوق السكان.

§.16.

ليس هناك شيء نملكه كما نملك قوى الجسد والعقل، لهذا من المنطقي أن يُسمح لكسب العيش بطريقة محترمة، وأن يسمح لممارسة المهارات المفيدة وتطبيق المعرفة؛ أن يكون ممكناً كسب لقمة العيش من خلال ممارسة الزراعة والحرف اليدوية، من التجارة. كما ينبغي أن يكون التعليم مفتوحاً للجميع، كل ذلك حتى تصبح الكمية ضارة على المجتمع.

§.17.

يطرد العمال المفيدين من الريف، إذ أن القوانين لا تسمح لمن يعيش في القرى والأكواخ ممن لم يساعدهم الحظ بامتلاك أي قطعة أرض للتمتع بالحماية، خلاف الإعاقة والشيخوخة، التي تجعلهم مقعدين تقريباً. لذلك، ما أن يشرعوا بممارسة الرغبة الطبيعية للحرية والاستقلال، حتى يتوجب عليهم الفرار إلى المدن، حيث يمكنهم العيش بسهولة وفقا لنزواتهم، أو العمل في وظائف متساهلة. في المقابل، كما هو الحال في انكلترا وألمانيا، حيث يمكن لكل فرد أن يصبح، حتى في الريف، سيد منزله، فإن العديد من العمال لا يزالون يعيشون في مسقط رأسهم الأصلي، يتكاثرون، يقومون بأعمال تجارية مفيدة، وبتأجير أنفسهم للعمل في المزارع، وهذا كله يفضلونه على حياة المدينة، حيث الحياة المسرفة والخاملة بدون زواج، من أجل الحفاظ على الثراء للأثرياء، والتزاحم حول عربات النبلاء، وقتل الوقت مع النوم والفسق، ليصبحوا عبئاً على أنفسهم وبلدهم.

§.18.

من أجل تعزيز المهارات وحريتها، فإن المدارس العامة بخاصة ستقوم بالمهمة، حيث يمكن أن يحصل الفرد على تعليم كامل، على أساس أن اجتهاد المرء وفهمه سيسمح، في كل أنواع الفنون والحرف، وعلى الفور، بالتعرف عليه كخبير حر في المجال الذي درسه. لكن، عدد كل نوع من أنواع الوظائف ينبغي أن يُقرر وفقا لحاجة المجتمع واستخدامه.

§.19.

على العكس من ذلك، تعتبر النقابات المغلقة لدينا، وتدريب المهنيين، وسائل عظيمة للحفاظ على الكسل، والقيود، ونقص اليد العاملة، والفسق، والفقر، وإضاعة الوقت.

§.20.

حتى ما يسمى بالفنون الحرة نفسها ليست حرة في السويد، وهي تستحق هذا الاسم أكثر في أماكن أخرى. في ألمانيا، يُسمح لكل فرد بتعليم الآخرين علناً كل شيء يعرفه. وعلاوة على ذلك، إما أن يُمنع الفرد منذ البداية من جعل التعلم من خلال الكتب طريقته الرئيسية في التعلم، أو لا يمكن منعه بعد ذلك من العيش بحرية من خلال التجارة المشروعة.

§.21.

وأخيراً، من الحقوق المهمة في المجتمع الحر هو السماح بحرية المساهمة في بناء ورفاهية المجتمع؛ ولكن من أجل أن يتحقق هذا الأمر، ينبغي أن يكون بالإمكان أن تصبح شؤون الدولة معروفة للجميع، كما ينبغي أن يكون ممكنا للجميع التعبير عن رأيهم بحرية حولها. عندما لا يكون هذا الأمر متاحاً لا تستحق الحرية اسمها. مسائل الحرب وبعض المفاوضات الخارجية تحتاج إلى السرية لبعض الوقت، وألا تكون معروفة من قبل العديد؛ لكن ليس على حساب المواطنين، بل بسبب الأعداء. أما مسائل السلم، وكل ما يتعلق بالرفاهية والرعاية الاجتماعية، فينبغي ألا تكون محجوبة من عيون الأفراد. ما لم، فإنه قد يحدث بسهولة أن يكون الأجانب الذين يرغبون بإحداث الضرر هم من لهم القدرة على الوصول إلى معرفة كل الأسرار من خلال المبعوثين والمال، بينما سكان البلد نفسه، الذين يقدمون بمثالية المشورة المفيدة، يجهلون معظم الأشياء. من ناحية أخرى، عندما يكون كل ما في البلد معروفا، يستطيع الشخص الملاحظ على الأقل رؤية الفوائد أو الأضرار، ومن ثم يقوم بالكشف عنها للجميع حيثما تكون هناك حرية للكلمة المكتوبة. وعندئذ فقط، يمكن توجيه المداولات العلنية بالحقيقة وحب الوطن، الوطن الذي يعتمد كل فرد على مصلحته العامة.

يا الله الأعلى، الساهر على نعيم الإنسان، عزز من حريتنا السويدية وحافظ عليها إلى أبد الآبدين!